الفصل الخامس

الحضارة والثقافة

عرف الحضارة العلامة الفرنسى شارل ريشيه، فى كتابه « ماهى الحضارة »، فقال إنها مجموع الآراء والعادات الناشئة عن الجهود التى تبذلها الأمة فى ميادين العلوم والفنون والصناعات والدين. فالذى يميز الأمة المتحضرة عن الأمة التى لا تزال فى طور الهمجية والتوحش هو العوامل التالية :

العامل الأول هو العلم: فالشعب الذى استطاع علماؤه الكشف عن متعدد أسرار الطبيعة، والذى وقف بعد جهاد طويل على معرفة حركة الارض مثلا ودوران الافلاك وأسباب الامراض وما إلى ذلك من نواميس الكون. هو شعب تفوق على سواه وقطع شوطا بعيداً فى ميدان الحضارة

ومن شروط التحضر الرئيسية الايكون العلم وقفا على طبقة دون طبقة، والا تنحصر المعارف فى دائرة رجال العلم وحدهم. بل تتحدر منهم الى سواد الامة بحيث يصبح الافراد جميعا وقد جاوزوا الطور البدائى الغريزى اقرب الى فهم أسرار الطبيعة وأقدر على معالجتها واتقاء أخطارها

ولقد كان العلماء فى القرنين السابع عشر والثامن عشر يحصون الحرص كله على أسرار مكتشفاتهم . وكان البعض منهم يخشى المجاهرة بها لئلا تصطدم نتائجها بالتقاليد البالية أو العرف الاجتماعى السائد أو العقائد الدينية العامة. أما اليوم فقد ساعد وجود الصحف والجمعيات العلمية والمؤتمرات على نشر العلوم واذاعة أنباء المكتشفات وترويجها بين عامة الشعب

فهذا التبدل الملحوظ هو تقدم مطرد فى سبيل تعميم روح الحضارة أى فى سبيل توكيد الغرض المقصود منها

والواقع أن شيوع كلمات (باروميتر) و (ترمومتر) و (ميكروب) و (أوكسجين) وغيرها وانتشار هذه المصطلحات العلمية بين طلبة المدارس ، يدل أبلغ الدلالة على تمكن سلطان العلم من الأغلبيات الساحقة وعلى أن هذه الأغلبيات قد بدأت تفهم الظواهر الطبيعية عن طريق العقل لا عن طريق الخيال والتصور كما كانت الحال فى العصور الأولى .

وهذا المظهر هو أجلى مظاهر الحضارة وأروع غاية من غاياتها اذا ما قورن بمظهر الحياة ومظهر العقل عند قبائل الاسكيمو والهوتينتوت

وعليه فنحن قد تحضرنا وهؤلاء ما يزالون سابحين فى خيالات الفطرة الجامحة العمياء .

ولكن الصحف والجمعيات العلمية والمؤتمرات لا تكفى لنشر العلم بين سواد الشعب وتحقيق غاية الحضارة . ولا بد من تنظيم التعليم الالزامى العام تمهيداً لنشر المكتشفات العلمية والارتقاء بعقلية الشعب ودفعاً به فى طريق البحث والاستقصاء والمعرفة

وإذن فالحضارة من الناحية العقلية تتألف من عنصرين وهما: نشر المعارف بين سواد الشعب وتقدم هذه المعارف واتساع نطاقها على أيدى علماء أفذاذ تسهل لهم الحكومات سبل البحث والكشف والارتياد

والعامل الثانى الذى يميز الأمة المتحضرة هو التقدم المادى أى اخضاع المادة لارادة الانسان ورغباته واحتياجاته. فكلما تحرر الفرد من سلطان الأشياء وكلما استطاع تسخير المادة لمصلحته اقترب من الانسان المتحضر. والحقيقة أن تضييق المسافات التى تفصل بين الناس وتقصير مدة الزمن التى تستخدم لاجتياز تلك المسافات من أكبر الجهود الدالة على التحضر، لان الغرض منها هو التفوق على الفضاء والوقت والزمن وتسهيل المواصلات لانعاش التجارة والصناعة أى لتوكيد التقدم المادى

فاستخدام البخار وانشاء السكك الحديدية بدل وجه العالم وضاعف شعور الناس بمعنى الحضارة وقيمتها. وكذلك اختراع المطبعة والطيارة والتلغراف الكهربائى واللاسلكى - كل هذه الجهود قد ساعدت على التقدم المادى العام وساهمت فى نشر الرخاء والمسرات وأذاعت مختلف العلوم والفنون، ووحدت بين أجزاء العالم وحققت الغرض المقصود من الحضارة وهو نفع الجميع وتسخير الطبيعة لمصلحة الجميع ووضع العلم تحت تصرف الجميع. فكلما انصرفت جهودنا نحو هذا الغرض واستطعنا أن نضيف قوة عملية جديدة إلى هذا القوى

العملية الرائعة، اشتد ايماننا بمقدرتنا البشرية وعززنا فى نفوسنا كرامتنا الانسانية وازددنا حضارة وتقدما ودفعا بعجلة التطور إلى الامام .

ولاشك فى أن اختراع الآلات والسعى المطرد لتحسينها من أبلغ الدلائل على التحضر أيضاً لان الآلة تخفف عن الانسان عبء العمل . وتنتج فى يوم واحد بواسطة رجلين ما كان يعجز عن انتاجه فيما مضى عشرة رجال مجتمعين . وهكذا تخفض الآلة قيمة المصنوعات وساعات العمل وتتيح للعمال فرص الراحة والتثقف والاستمتاع بالحياة

وما يسرى على اختراع الآلات يسرى على المكتشفات والعلوم الطبية أيضا . فهى تكافح المرض والالم والموت . وترمى الى الغاية نفسها أى الى مضاعفة الاستمتاع بالحياة ومضاعفة القدرة على العمل والتثقف والسعادة

اوعليه فالعلوم الطبية والطبيعية والكيمائيه . العالم المادى لسلطاننا وتساعد كل المساعدة على تحضرنا بدليل اننا ننتفع بكل شىء عن طريقها فى حين أن الرجل المتوحش ، الذى يجهلها يعيش فى عالم مغلق محدود لا يعرف أن بضعة أحجار سوداء يمكن ان تنتج حرارة وقوة وأن هناك آلة تزيد فى محصول الارض . وأساليب وطرائق لصنع الالوان والعطور والعقاقير ومختلف المناهج والمتع . وان هناك

معجزات أخرى سوف تتمخض عنها حضارة الغد

والعامل الثالث الذى يميز الأمة المتحضرة هو العادات والاخلاق إذ أية فائدة من الحضاره المادية بالغة ما بلغت من الرقى أن هى لم تقترن بعادات حميدة وأخلاق سامية وأمثلة روحية عليا .

أية فائدة من الحضارة المادية اذا كان الفرد لا يعرف حق المعرفة ما هو واجبه الاجتماعى بواجبه السياسى وواجبه العائلى . وما هى مسؤولياته حيال وطنه وحكومته وأسرته والانسانية جمعاء ؟

الواقع أن العادات والاخلاق أبلغ فى الدلاله على التحضر من الرقى العلمى المادى ، وقد عرف التاريخ شعوبا سرعان ما انحطت حضارتها بانحطاط أخلاقها وسرعان ما انحطت حضارتها بانحطاط أخلاقها وسرعان ما تقلصت جهودها الفنية بتقلص عناصر المتانة والصرامة والجد فى أخلاقها

وما نفع استغلال قوى الطبيعة والتغلب على المادة والقضاء على وفيات الأطفال وتنظيم سرعة المواصلات وتنشيط التجارة والصناعة وانتاج عباقرة فى الآداب والعلوم والفنون ، ما نفع كل هذا وقد ازدادت نسبة الاجرام واشتعل شر الدعارة ، وانحطت الاخلاق السياسية ، وفشت روح وضولية وقضى على عناصر الاستقامة والنزاهة والتضحية فى الحياة العامة ؟ لا شك أن رقى الأمة لن يقيها فى هذه الحال خطر السير شيئاً فشيئاً نحو الانحطاط والعدم

ويرى شارل ريشيه أن من مستلزمات الحضارة الصحيحة أن يقترن التقدم المادى بالتقدم الخلقى يسايره جنباً الى جنب وإلا أصبحت الأمة

كالشخص الكسيح لا ينهض الا ليقع .

أما العامل الرابع الذى يميز الأمة المتحضرة هو الحرية فهو حرية النظم السياسية التى تسمح بازدهار العلوم والفنون والفكر البشرى نفسه والتى تخول الفرد سلطة الحكم على الاعمال العامة ومناقشتها ومحاولة اصلاحها الاشتراك فى بحثها وتوجيهها مع قادة الرأى ورجال الدولة . فلا وجود للحضارة بدون هذه الحرية . ولا معنى للحضارة مع الاستبداد . ومن المحال انشاء حضارة بلا قانون عادل يسيطر على الجميع ويحترمه الجميع ويساوى بين الجميع سواء فى ذلك الحاكم أو المحكوم .

ولكن من طبيعة القانون أن يكون صارما قاسيا شديد الوطأة . ولذلك لا تتحقق الحضارة المثلى فى أمة من الأمم إلا إذا لازمت القوانين عواطف التضامن والتسامح والمحبة والرأفة ، وتغلغلت فى قلب كل فرد وجعلته يستغنى جهد الطاقة عن الاحتكام الى القضاء والالتجاء إلى القانون طلباً للانصاف والعدل . وهذا التطور لا يمكن أن يتم إلا بعد جهاد طويل شاق تشترك فيها الآداب والفنون فتهذب المشاعر وتلطف الأهواء وتقرب بين الافئدة والعقول .

أما العامل الخامس الذى يميز الأمة المتحضرة فهو الفن . ولكن بعض الناس يعتقدون أن الفن من كماليات الحياة ، وأن لا حاجة بالفرد الى حب الفن وفهمه وتذوقه كى يكون انسانا متحضراً وتذهب فئة كبيرة الى أن الفن ليس من مقومات الحضارة الأولى وأن الحضارة نفسها قد تسمع وتزدهر بلا فنون رفيعة كما هى الحال اليوم فى أمريكا مثلا .

والواقع أن أصحاب هذا الرأى يغالطون مغالطة واضحة وينكرون الحقائق الأبدية التى يقوم التاريخ شاهداً عليها

ويرى شارل ريشيه أن لاحضارة بالمعنى الحقيقى إلا متى اقترنت بالثقافة فلئن كانت أمريكا بلاداً متحضرة من الوجهة المادية ، أى من حيث التنظيم الصناعى والاقتصادى، ولكنها ماتزال متأخرة من الوجهة المعنوية ، أى من حيث الرقى الفكرى والوجدانى وأبدى الطرائف الخالدة فى الآداب والفنون. وفى أمريكا مصانع عظيمة وناطحات سحب رائعة وأنظمة اجتماعية واقتصادية تعود بالرخاء المادى على أغلبية الشعب ولكن ليس فيها حركات أدبية وعلمية متغلغلة فى مجموع الامة وليس فيها طائفة من كبار الفنانين والادباء تنتج أعمالا فكرية ممتازة وتستطيع أن تؤثر فى عقلية الامة نفسها وفى اتجاهها المعنوى بحيث يتعادل الرقى الاقتصادى مع الرقى الفكرى والاحساسى لتكمل عناصر الحضارة

ومما لا يقبل الريب أن أمريكا أخرجت نفراً من كبار الأدباء وبعض كبار الفنانين . على أن هذا النفر استطاع الظهور بمجهود الشخصى وعلى الرغم من ارادة سواد الشعب الذى يؤثر الاستماع بالرخاء المادى والعمل فى سبيل هذا الرخاء على الاستماع بالآداب والفنون

إن ذلك النفر من الفنانين والادباء لم يكن فى مقدوره تبديل عقلية الشعب وحمله على حب الفنون والآداب حباً صادقا عميقاً وجعلها من ضروريات الحياة لعظم سيطرة الفكرة المادية على ذلك الشعب الفتى المولع بالشؤون العملية فحسب ، واذن ففى وسعنا أن نقول إن فى أمريكا شروعا

فى انشاء حضارة ماتزال تنقصها الثقافـــة . وإن فيها ضروبا منوعة من الرقى المادى ولكن ليس فيها تلك الشعلة الفنية والادبية التى ترفع مستوى الشعب وتسمو بنفوس أفراده وترقى بأرواحهم وتفصل ميولهم ومشاعرهم وتوازن فى عقولهم بين مطالب المادة ومطالب الروح

فهذا التوازن المنشود هو دليل الحضارة الصحيحة وهو نتيجة ازدهار الثقافة بمختلف فروعها ولاسيما الفن . والحقيقة أن هناك فارقا كبيراً بين الرجل الامريكى المتوسط والرجل الأوربى المتوسط . فالأول ينظر الى شتى مولدات الذهن البشرى نظرة مصلحة ويحاول اخضاعها جميعاً لحكم المصلحة أى للنفع المباشر المحسوس ، أما الثانى فمع تمسكه بمصلحته ودفاعة عنها وتعلقة الشديد بها ، يميل الى تثقيف عقله ونفسه بالفنون والآداب تثقيفاً نزيها لا يعود عليه بأية فائدة عملية بل يعود على جوهر نفسه بفائدة معنوية مجردة ولذة روحية تجد نهايتها فى نفسها .

وقد يتبرم الأمريكى مثلا بقضاء جزء من وقته لمشاهدة معرض صور فنية ، ويعتقد أن هذا الوقت ضائع ، وأن معرض الصور يتطلب اليه أن ينعم النظر ويفكر ويفهم ويتذوق ، فى حين أن فى استطاعته أن يستخدم هـــذا المجهود الفكرى فى عمل يستدر منه المال ، أو يستخدم ذلك الوقت فى الذهاب الى قاعات الرقص أو دور السينما فيتسلى ويلهو وينسى عناء النهار ويعود مجدد النشاط لاستئناف عمله المادى من أجل المادة أيضاً

هـــذا ما يدور فى خلد الامريكى المتوسط ، وهـذا ما يفكر فيه أما الاوربى المتوسط فهو معجب بالفن ويسحره الادب الرفيع

ويحاول أن يفهم ويتذوق هذا وذاك ولا يجد أية غضاضة فى التفكير فى عمل فنى وهو يعلم علم اليقين أن مجهوده لن يعود عليه بأية فائدة مادية وهذه الظاهرة الملحوظة فى معظم الاوربيين هى الدليل البالغ على أن أوربا حضارة عريقة فى العناصر الثقافية تمتاز عن حضارة أمريكا بهذه الثقافة نفسها وتأصلها فى نفوس أصحابها واعتبار هذه الشعوب حب الظواهر الفكرية لذاتها لا لغرض معين .

معنى الثقافة

هذا ما يقال عن الحضارة أما الثقافة فهى : فى المعنى الأوسع ممارسة طرق العيش والتفكير والشعور وهى تشمل التربية والعلوم والفنون والعاديات والعادات الاجتماعية والحديث والمجاملة والزواج والطلاق والقوانين والحرية .

الفصل السادس

منشأ الحضارات القديمة

عند الكثيرين من المؤرخين أن الحضارات القديمة قد بدأت فى مصر أو بابل أو فيهما فى وقت واحد وامتدت من إحداهما الحضارة التى ظهرت فى آسيا وأوروبا . وعند آخرين أن حضارة كل أمة مستقلة عن غيرها ذلك لأن أسباب قيام الحاضرات هو طبيعة الأرض فنشأت الحضارات عند مجارى الانهر وحيث تسقط الامطار المخصبة وسواحل البحار . وعلى هذا ليس ببعيد أن لا تكون هناك أية صلة بين بناة أهرام مصر وبين بناة المبانى الهرمية فى أمريكا